القراءة عملية إنتاجية مؤجَّلة

م.د. إبراهيم يونس محمود*

تأريخ التقديم: ٢٠١٣/٧/١ تأريخ القبول: ٢٠١٣/٩/١٦

المقدمة :

تقوم القراءة أساساً على طريقة معالجة النص، ويترتب على ذلك نتائج نقدية تظهر في اللحظة الآنية للقراءة ، وهذه العملية لا تظهر إلا بوجود العمليات القرائية وبدونها لا يمكننا التوصل إلى الخطابات التي ستطفو بعد تصفية النص الأصلي من القراءة . فالنص المميز يغري ويثري القارئ ، ولكن ليس باستطاعة القارئ فك شفرات النص إلا من خلال القراءة المتأنية لذلك النص، ولابد لنا من وقفة لفهم نوايا القارئ في العملية الكشفية للجهاز الاستقرائي للنصوص .فثمة قراءات تثري النص، وقراءات أخرى قد تسئ إلى النص تلك القراءات لا نعول عليها كثيراً، سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على القارئ لِما يشكله من أهمية كبيرة في مجالات الدراسات النقدية الحديثة .

إن القراءة النصية تلقي بظلالها على النص المقروء لكون هذه النصوص حُبلى بالدلالات المختلفة باختلاف القراء ، وكلنا يعلم أن لكل كاتب أساليبه الخاصة وأدواته والياته في العملية الكتابية وقد احتل تحليل النص حيزاً كبيراً ومكاناً مرموقاً في المناهج التي ظهرت بعد البنيوية . وإذا كان للكاتب دوره فيما سبق من الدراسات المعرفية والنقدية أصبح للقارئ أيضا دور مهم في اللعبة الثقافية وما يتمخض عنها من ايدولوجيات يتضح دورها في العملية الإنتاجية للنصوص ، وهذا يتطلب منه . أي القارئ . دربة عقلية وفكرية للتصرف بالنصوص المقروءة فالنص ملئ بالفجوات التي يتطلب ملؤها إجراء عملية إدراكية للفهم من خلال التوافق الذي سيؤدي إلى إنتاج نصوص متعددة والوقوف عند القارئ هو إعطاء سمة تمييزه عن طريق جماليات القراءة ومقدرته الإبداعية لخلق نصوص أخرى من النص الأصلي للمؤلف . إن التوجه إلى سلطة القارئ ما هو إلا محاولة للوقوف على القصدية في العملية التأويلية والتريث في إيجاد العلاقة مابين النص والقارئ . ولا شك أن المناهج التي ظهرت بعد البنيوية قد أولت القارئ الأهمية العظمى في الولوج إلى عالم النص .

* قسم اللغة الإنكليزية/كلية الآداب / جامعة الموصل.

يتجاذب البحث قسمان :فأما الأول فهو ماهية القراءة النقدية وأما الثاني فهو :القارئ الايجابي أو الخلاق ثم الوقوف على الخاتمة

المبحث الأول : ماهية القراءة النقدية :

القراءة :هي طريقة معالجة النصوص ، وكشف خفاياها ومعرفة مابين الأسطر لاستنباط الأحكام النقدية . وما تحمله تلك العملية من نتائج تتمظهر فيما بعد من خلال وضع آليات وأدوات نقدية يمتلكها القارئ ((فالقراءة بوصفها عملية فك وتكوين موضوع وفهمه،تتطلب مراقبة الغامضة والملتبسة بين الفاعل والموضوع الذي يراد بناؤه وتفهمه وإذا كانت القراءة كمصطلح نقدي وإجرائي مفتاحاً للغة الفكرية والمفهومية والمعرفية الحالية فإن العلاقة التحليلية بين القارئ والمقروء تتعقد وتتداخل إحالاتها ومرجعياتها... وتعني عملية القراءة فك شفرة المكتوب أو المنسوخ أو المقروء اللغوية والجمالية والفكرية بوصفها مساراً تناصياً واجتماعياً يجتمع داخله سياقات إنتاج خارجية أدبية ثقافية وآيديولوجية في ترابطها وتأثيراتها في ظروف التلقي والقراءة بحيث يتواشج النص باعتباره موضوع القراءة))([1]) والقراءة تتطلب اختبار الكاتب صاحب النص ، الذي من المفترض أن نثق به وبمقدرته الإبداعية على إثراء الفكر النقدي ، فالنص في هذه الحالة مفعم بالأحكام النقدية ، ولكن ليس باستطاعتنا حل شفرات (النص) إلا من خلال القراءة الصحيحة التي بدورها لا تستطيع توضيح النصوص وتفسيرها من هنا نجد أن((القراءة فعل جمالي وليست مجموعة من القراءات الفردية المنعزلة، وهي حصيلة أو ملتقى تأويلات وعائي ودلالات تتدرج في نسق قيمي ومعياري وتصوري لجماعات اجتماعية معينة، تجمعهم علاقات تلق أدبي وثقافي مشروطة بظروف تاريخية معطاة ، تجيب عن انتظارات جمهور قارئ أو جماعات في مرحلة تاريخية معينة))([2]) فالقراءة النقدية المتمرسة لا توقعنا في متاهات عشوائية عند الانتهاء منها هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أن النص المكتوب أو سلطوية المؤلف تحاول أن تعمم بعض الظواهر النقدية على النص وبدوره يفرضها على القارئ وهي تختلف من مؤلف إلى آخر من هنا تأتي محاولة القارئ اعتماد آلية تسعى إلى قمع تفرد الأنا المتعالية للمؤلف بسلطة النص . والقارئ يسعى من خلال عمله هذا إلى فك الارتباط أو الاندماج الحاصل مابين النص وصاحبه من دون

(١) نظرية القراءة وتلقي النص الأدبي: د.شرشار عبد القادر ،مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الأدباء والكتاب العرب ، دمشق ع(٣٦٧) تشرين الثاني ،٢٠٠١ . master-lettressrsbe.blogspot.com

(٢) المرجع نفسه

إسراف أو لجوء إلى العمليات التعسفية في فهم النص ونجد((أن المؤلف مثله مثل الناقد لم يكن يتعامل مع فكرة النقد المُنبثقة من الرؤية القائلة إن النتاج المعرفي "الكتاب"له بنية معرفية ولغوية منفصلة عن شخص منتجه ولها ظروفها الخاصة وعوامل إنتاجها المعيّنة))([1]) فالناقد هو القارئ وكل قارئ له معجمه الخاص به سيعمد إلى العملية التأويلية في إيضاح النصوص ومن خلال القراءات التي ستؤول إليه من هنا يمكن أن نعد الخطاب النقدي منجزاً((بنّاء، حين يبني هذا المنجز على متن مقروء ، مرتكزاً على سنن مهنية موضوعية في تحليل المقروء وفحص مرتكزاته، غير أن ذلك الخطاب لا يمكنه أن يكون منتجاً وبنّاءً إن لم يكن أيضا ، محصّناً بنيات أخلاقية بريئة متشامخة على الهموم الشخصية الضيقة والمنافع الفردية)) ([2]) . والمواجهة أصبحت حتمية ولا مناص منها في النص ،ولا بد للنص أن يمتلك بعض الثيمات النقدية التي سيرتكز عليها القارئ، ليس هذا فحسب بل أن التراكم المعرفي الذي يُعد المخزون الثقافي للقارئ سيؤثر في العملية القرائية للنص . والقارئ ((هو ذلك الشخص أو تلك الفعالية التي تعمل على فك شفرات النص وتحقيق نوع من التواصل الجمالي أو السيكولوجي أو المعرفي معه، أو استثمار معطياته وممكناته وإعادة بنائه وإنتاجه))([3]) .إن القارئ في ظل هذه التوجهات النظرية الحديثة قد أعطى النص سمة للتوافق والتلاؤم وهذا المُعطى من النص هو بنية للفهم الإدراكي من اجل القيام بعمليات إجرائية تحدث في النص أثناء عملية التلقي فهذه الإعادة الإنتاجية عن طريق التفاعل ما بين النص والقارئ سيلد من رحمها النص الجديد(النص المقروء) . نعلم أن النص هو عمل من إنتاج الكاتب ، ولكن هذا التواصل لا يستمر طويلاً، فبمجرد دخول الطرف الأخر(القارئ) على النص المكتوب للمؤلف الأصلي ينقطع اتصال المؤلف مع النص، وبدون هذه العملية لا يحصل أي إنتاج لقراءات منبثقة من النص، فإنتاج النصوص كما يرى رولان بارت:هو الضريبة أو الثمن الذي تتطلبه ولادة القارئ للنصوص المقروءة([4]) . إن القارئ هو في حقيقته المعرفية مستودعٌ للتراكمات الثقافية التي اكتسبها من المرجعيات التي أحاطت به وهي بمثابة قراءات سابقة عليه وبإمكانه توظيفها بخبرته

(١) خطاب الأخر خطاب نقد التأليف الأدبي الحديث أنموذجا: د.عبد العظيم رهيف السلطاني ليبيا ، بنغازي ،دار الأصالة والمعاصرة ودار الكتب الوطنية ، ط(١) ،٢٠٠٥، ص١٠٤

(٢) المرجع نفسه: ص١١٤ .

(٣) مفهوم القارئ وفعل القراءة في النقد الأدبي المعاصر: د. محمد خرماش، مجلة الأقلام،ع(٥)١٩٩٩ ،ص٢٠ .

(٤) ينظر: موت المؤلف نقد وحقيقة /رولان بارت : ترجمة وتقديم إبراهيم الخطيب ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص٢٠ .

ومقدرته في التعامل مع تلك النصوص المقروءة. من هنا يمكننا أن نعد القارئ ذا خاصية بتعامله مع ما يقرأ من نصوص وما ينتج عنها . أي القراءات . من أحكام معرفية وذوقيه(١) . فالقراءة هي عملية ممارسة عقلية وفنية ما كان لها أن تصل إلى هذا التوجه العلمي الدقيق لو لم تُبنَ على أسس إستراتيجية لفهم هذه الممارسة الإبداعية والتركيبية في الفعل(٢) . نستخلص من ذلك أن القارئ يمتلك المكانة الفعّالة في بناء النص المقروء لا بل هو المكّون الثانوي للنص ، وهذا يتطلب منه دراية تفحصية للتواصل النصي للخطاب النقدي، فهذه العلاقة الجدلية القائمة اتسمت بها القراءات النقدية المعرفية التي أخذت تتجه من المؤلف إلى النص، ومن النص إلى القارئ ، فالنقد الحديث أو لنقل على وجه الدقة إن المناهج النقدية الحديثة بعد البنيوية ، أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن المؤلف حتى تلاشت في نصه ، فالنص لم يعد مملوكاً لصاحبه المؤلف الأصلي وإنما تعداه إلى قراء لا يمكننا أن نحصيهم عدداً .

فالقارئ تجاوز المؤلف واخذ يسهم في إنتاجية النص عن العمليات الإنتاجية وكلما كانت ثقافة القارئ متعمقة في النص كانت النتائج أكثر نضجاً((وقد أكد أصحاب نظرية الاتصال والتأثير والتأثر مشاركة القارئ في إنتاج معانٍ جديدة ، وتتشكل تلك الإنتاجية من خلال الخزين المعرفي الذي يمتلكه هذا القارئ وستعمل تلك الإنتاجية على تميز قارئ عن آخر، فكلما زادت رقعة الثقافة والمعرفة والاطلاع زادت الحصيلة الإنتاجية الجديدة للنص من قبل القارئ)) (٣) .فالقارئ في العملية الاستقرائية يكون وجهاً لوجه مع النص ويصبح البؤرة التي يتمركز حولها النص المُنتج من القراءات المتعددة ، ولكن هل يمكن للقارئ أن ينظر إلى النص معزولاً عن النصوص المتراكمة في ثقافته المعرفية التي قرأها منذ زمن بعيد وهل أصبحت الأداة التي يمتلكها القارئ في مواجهة النصوص الحديثة المقروءة تحكمه في اللحظة الآنية للقراءة ؟ نقول إن القارئ الذي يعتمد المناهج النقدية الحديثة ، أصبح عنصراً فعالاً ومشاركاً ومساهماً في العملية النقدية في محاولة لاستكشاف آليات للقراءة يتفاعل معها من اجل خلق نص جديد مبدع ، ولا يمكننا أن نبخس دور القارئ في الكشف عمّا يحدث من تطورات نظرية وأدبية حديثة ، وهذه

(١) ينظر: في غيبوبة الذكرى دراسات في قصيدة الحداثة :د. حاتم الصكر ،دار الصدى ، دبي الطبعة الأولى ديسمبر ٢٠٠٩ ، ص١١٣ .

(٢) ينظر: جمالية الألفة النص ومتقبله في التراث النقدي : شكري المبخوت ،تونس ، بيت الحكمة الطبعة الأولى، ١٩٩٣ ص٦٣.

(٣) ما وراء النص دراسات في النقد المعرفي المعاصر:د. محمد سالم سعد الله، الازدن ، عالم الكتب الحديثة،جدارا للكتاب العالمي، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ ،ص٨٨.

النظرية أفسحت المجال للقارئ الذي هو في صُلب العملية النقدية وجعلته احد العناصر المهمة في التخاطب . والقارئ يُعد((محوراً رئيساً في المفاهيم النظرية والإجرائية في اتجاهات نقد استجابة القارئ أو اتجاهات ما بعد البنيوية كالتفكيكية والتأويلية والسيميولوجية والقراءة والتلقي وشكلت فاعلية القراءة المهمة المركزية للنقد المتمحور حول القارئ وبطبيعة الحال لا تشكل الاتجاهات المختلفة التي تنطوي تحت باب نقد استجابة القارئ نقداً موحداً من الناحية المفهومية بل تمثل مجموعة متباينة في المنطلقات والمناهج والأدوات إلا أنها تكاد تجتمع في الاعتراض على الرأي القائل إن المعنى كامن في النص الأدبي ، وترفض حصر المعنى بالنص وتميل إلى الاعتقاد بان القارئ هو الخالق الحقيقي للمعنى)) (١) .فإنتاجية النص قائمة على معرفة إستراتيجية توسيع نطاق فهم النص . في محاولة للالتفاف على المعنى المقصود في النص من هنا أصبح((القارئ هو الهدف المختار بوعي من طرف المؤلف فالإجراء الأسلوبي مؤلف بطريقة لا يمكن معها للقارئ أن يمر بجانبه ولا أن يقرؤه أيضا دون أن يسوقه إلى ما هو جوهري)) (٢) ولكن ثمة سؤال يطرح وهو : كيف تتم عملية إنتاج النصوص عن طريق القراءة أو القارئ للإجابة على هذا السؤال سنقف قليلاً عند رأي آيزر الذي يؤكد على أن تفاعل القارئ مع النص قائم على أساس العلاقة الجدلية المستمرة(٣) فهذا الصراع القائم مابين النص والقارئ قد يصل إلى أحداث شرخ في العلاقة بينهما ولا ينبغي لنا أن ننحاز إلى القارئ هنا لكونه موضوع البحث ولكن نذهب مع الذين ((يرون أن النص بناء متكامل بذاته،والمعنى بنية منجزة في داخله، والقارئ هو الذي يقوم بإخراج هذه البنية المستترة محملة بإشارات النص نفسه)) (٤)فالنص يحمل دلالات وبنيات ضمنية يسعى القارئ إلى إظهارها وإخراجها من بودقتها المتخفية والمتسترة في النص، ولا شك أن القراءة هنا تتطلب معرفة المُنجز أصلا من النص (المُؤلف) بغية الوصول إلى أفق توقع القارئ أو عملية انتظار القارئ لِما سيفرزه النص .إن هذه الانفتاحات داخل النص هي عملية جمالية وتفسيرية لِما وراء النص والمؤلف قد لا يعطي بالضرورة كل شاردة أو واردة إلى القارئ على طبق من ذهب وإنما يدخل معه في تحدٍ لفرض إيديولوجيات النص على القارئ والقارئ يدخل هنا في منازلة مع النص(المؤلف) لإظهار

(١) القصيدة والنقد، سلطة النص أم سلطة القارئ: فاضل ثامر، الأقلام،ع(١)بغداد ١٩٨٨،ص١٢.

(٢) معايير تحليل الأسلوب :ريفاتير، ترجمة عيد الحمداني،دار سال،المغرب،الطبعة الأولى،ص٣٥..

(٣) ينظر المعنى الأدبي وليم رأى : ترجمة يوئيل يوسف عزيز ،بغداد ،دار المأمون ،ص٤٣.

(٤) الأصول المعرفية لنظرية القراءة : ناظم عوده ،مجلة الأقلام ،السنة(٢٨)،ع(١١،١٢) تشرين الثاني ،كانون الأول ،بغداد ١٩٩٣،ص ٧٣.

براعته في كشف المسكوت عنه في النص عند البدء بالعملية القرائية ،من هنا يعمد المؤلف إلى ((حبس بعض المعلومات عن القارئ ووجود فراغ مقصود وسيلة ناجعة في برمجة مساهمة القارئ الايجابي في تأويل النص)) (١) وهذا الحبس أو الفراغ هو في حقيقة الأمر (الفجوة)التي تتصب في صميم عمل القارئ لتغطية الثغرات التي قد تظهر في النص فالقارئ هنا يتقنصها بقراءته الذهنية العقلية والمنطقية السليمة من اجل الوصول بالنص إلى بر الأمان باكتمال استكناه معانيه، وهذا يعنى أن النص يحتوي على جماليات للمعنى وصلة القارئ بالنص تكمن في توجيه دفة القراءة إلى دلالات مختلفة والمُحصل منها يمكننا أن نعده بمثابة العمليات الإنتاجية المؤجلة في النص وهذا لا يعني أن النص ليس فيه إنتاج ، ولكن هذا الإنتاج غير مكتمل من هنا يأتي القارئ لقراءة النص من جديد ، وإعادة إنتاجه .

إن المؤلف يحاول أن يهرب من قبضة القارئ ،ولكن ليس أي قارئ، وإنما القارئ المبدع الخلاق الذي يقف بوجهه بالمرصاد ليتلقف أي فكرة ربما تغافل عنها المؤلف ولم يوفق في عرضها من هنا يحمل القارئ ((على عاتقه مهمة اكتشاف هذا النص الذي يمثل نسيجاً ملتحماً من أنسجة أخرى، فيحاول القارئ كل مرة أن يحل هذا النسيج وان يقوض أركان وبنى النص عله يصل إلى حقيقته التي باتت هي الأخرى أمراً نسبياً،فيحاول القارئ عندئذ العودة إلى كل نص وكل مصدر انبعثت منه إشارات النص المكتوب...وتحقيق لإنتاجية النص بدل استهلاكه)) (٢) والمعنى الذي يسعى القارئ إلى تخريجه من النص لاستبطان أصوله الثقافية والمعرفية .((ولا نزاع في أن فعل القراءة هو عملية شائكة، ومعقدة تجسدها عوامل نصية وخارج نصية؛ وهذا يعني أن الجزء اليسير جداً من الذاتية يمكن ان يسهم في فهم النص، وتقويمه)) (٣)

المبحث الثاني: القارئ الايجابي (الخلاق) :

سنقف في البدء عند مصطلح القراءة الإنتاجية فنقول : إنها مجموعة من العمليات الذهنية التي يحصل عليها القارئ عند قيامه بانجاز عمل قرائي ما والإنتاجية((هي عملية استهلاك قوة العمل، وخلق

(١) نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها : د. حسن مصطفى سحول ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٥،ص٦٩.

(٢) الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية دراسة في الأصول والمفاهيم: د. بشير تاوريريت ،أربد ،عالم الكتب الحديثة ،ط(١)، ٢٠١٠،ص٢٤١.

(٣) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر :د.عزيز عدمان الأردن،اربد،عالم الكتب الحديثة ط(١)ص١٣٨.

وسائل الإنتاج، وخلق أدوات الاستخدام الشخصي الضروري لوجود المجتمع وتطوره، وعملية الإنتاجية هي شرط مستمر وطبيعي للحياة الإنسانية ، وهي العناصر الأساسية في كل عملية إنتاج، وهي النشاط الهادف للناس وموضوع العمل ووسائله)) (١) وقد يقترب مصطلح القراءة الإنتاجية من المُسلمات المادية كأننا أمام مصنع لإنتاج أدوات ملموسة ولكن تسمية المصطلح هنا تأتي بدلالات الذهنية والفكرية والعقلية وما سوف تفرزه هذه الدلالات من نتائج بعد الانتهاء من عملية القراءة التي هي بطبيعتها مؤجلة لحين الانتهاء من عملية القراءة .إن((القراءة المنتجة الفعَالة التي تنطلق من الخبرات القرائية المكتسبة سابقاً ، يوجهها الفعل المُسدد لمسار القراءة والمُرشد إلى فضاء فحص مكونات النص، واليات اشتغاله ، ولعل المقصود بالحياد أو البراءة في مجال القراءة النقدية هو التعامل النزيه مع النص بروح نقدية عالية من الثقة في التحكم في الوسائل الإجرائية والمنهجية أثناء متابعة المسار المنطقيّ للنص؛بعيداً عن الإساءة إليه وسوء الفهم)) (٢) .

كثُر الحديث عن القراء وطرائقهم في تناول النصوص المقروءة لكننا سنتناول هذا النمط من القراء ألا وهو القارئ الايجابي الذي سيثري العملية الإنتاجية للنصوص . إن المنحة التي أُعطيت للقارئ جعلته يتفاعل مع النص ليشكل الركيزة المنهجية التي ستتولد منها النصوص القرائية فيما بعد، والتي بدورها ستثري الأحكام النقدية الصادرة والمستنبطة من العملية القرائية .من هنا سنحاول الوقوف عند القراءة المبدعة التي تتجه نحو القراء المبدعين والمتميزين والذين هم على درجة عالية من الدقة وتوخي المنهجية والتأني في ترويج الأحكام المعرفية والنظر بعين فاحصة في تحليل الخطاب من أجل الوصول إلى البلورة الشاملة للقراءة في العملية التحليلية ((والواقع إن فهم الناقد للنص، وإدراكه لمعانيه يستوجب جودة الفكر، ومعرفة عميقة للألفاظ ومراتبها على نحو يؤدي إلى قراءات أكثر انسجاماً مع فحوى الخطاب، ولا سبيل للناقد إلى الدخول في عالم النص إلا بالتضحية بعالمه الذاتي)) (٣)كما أن سلطة النص من جهة وطبيعة عمل القارئ من خلال المنجز اللغوي ستفرض على القارئ طبيعة إجراءات التحليل اللغوي وموضوعها على نحو يقيد حدود القراءة الذاتية التي ستتملص من أي خضوع

(١) الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية : د.محمد سالم سعد الله أطروحة دكتوراه ،جامعة الموصل، ،كانون الثاني، ٢٠٠٣ ،ص٣١٣.

(٢) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر: ،ص٧٥.

(٣) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر :ص٨٤.

معيارية أو قياسية([1]) ومن المسائل الواجب توفرها في القراءة هي القارئ الفطن الذي يمتلك أدوات الربط الحاكمة في القراءة وكلاهما(القراءة والمتلقي) يكمل بعضهم بعضاً في عملية الأخذ والعطاء و((نظرية القراءة التي استمدت روحها من نظرية التلقي من شأنها أن يكون لها نفع في طرح مجموعة أسئلة على النقد العربي عامة وذلك بفتح أبواب ظلت موصدة في وجه تراثنا النقدي القديم ...من ذلك الكشف عن الصلة بين الشاعر والنص والقارئ وإظهار موقع القارئ من العملية الإبداعية وهو الأمر الذي يعد في عصرنا هاجساً من هواجس القراءة والنقد وعاملاً من عوامل تفكيك بنية النص الكتابية وشرطاً من شروط تأويلها)) ([2]) فالدراسات النقدية الحديثة تميل أكثر ما تميل إلى إقصاء المؤلف عن النص وينصب جُل اهتمام هؤلاء النقاد بالنص دون اللجوء إلى عمليات اقحامية لعوامل خارجية مؤثرة في النص من هنا((إن القراءة دليل الحيوية والتجدد وإنها طريق مهم من طرق العناية بالنص)) ([3]) فسعة النظر وقدح القراءة والثبات توقد الذهن في العملية القرائية .وما دمنا بصدد القارئ وتنوعاته نقول: إن القارئ قد يسئ إلى النص وذلك من خلال المرجعية التي يمتلكها والتي ستبنى عليها النتائج النهائية في الحصول على الفهم في القراءة وقد التفت عبد القاهر الجرجاني إلى قضية القارئ وعلاقته بالنص إذ رأى أن ((أول مكونات القارئ عند الجرجاني هو تهيؤ ذاتي لأدراك المعاني .وذوق وقريحة مع تكرار النظر لرؤية التفاصيل وهو يدعو إلى نمط جديد من القراءة)) ([4]). إن القارئ عند عبد القاهر الجرجاني((لا ينفصل عن نظرية النظم،ومهمة القارئ هي مواجهة النص والكشف عن القيم الجمالية فيه، وذلك يحتاج إلى مقدار من التأمل والتدبر والتأويل، فضلاً عن دوره . أي القارئ . في إعادة تشكيل النص، والتأثير في استنباط دلالته)) ([5]) . فهذه التهيئة التي يرصدها عبد القاهر الجرجاني للقارئ نجدها ضرورة ملحة للخطوة الأولى في الدخول إلى النص ((وذلك لان موقف المتلقي الجمالي عند الجرجاني يتمثل بتهيئته للتدخل في الصياغة وإعادة تشكلها، وتحركه وراءها، ومتابعة خيوطها ،

(١) ينظر: المرجع نفسه: ص٧٩.

(٢) تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع للهجرة:د. نادية هناوي سعدون،دار ومكتبة البصائر للطباعة النشر والتوزيع، لبنان بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١ ،ص١٤

(٣) القراءة ونظرية التلقي في النقد العربي : محمد حسن رضا، أطروحة دكتوراه ،جامعة بغداد ١٩٩٤ ،ص٣٠٦ نقلاً تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع للهجرة: ص١٤

(٤) تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع للهجرة: ص٣٠

(٥) ما وراء النص دراسات في النقد المعرفي المعاصر: ص٩١

وافتراض حضور المتلقي في العملية النقدية الجمالية محاوراً ومتداخلاً ومتابعاً، جعل من الجرجاني يتوجه إلى المتلقي وكأن العلاقة بينه وبين النص لا تكون إلا من خلاله ، كما أن العلاقة بين المبدع والمتلقي لا تكون إلا من خلال الخطاب)) (١) .إن القارئ النصي يُعد نفسه جزءاً من النص المُؤلف وقراءة النص هي أشبه بالمغامرة التأويلية التي تعتمد على المعرفة التي يمتلكها القارئ هذا من جهة ومن جهة أخرى إن القارئ لا يريد أن يحصر نفسه في بؤرة النص حصراً وإنما يتخطى حدود النص التي يحاول المؤلف أن يفرضها شريطة امتلاكه القراءة الحوارية التي ((لها شروطها المعرفية والثقافية ، وتكون ناجحة بقدر مهارات المتلقي القرائية وأدواته المعرفية والإجرائية فالناقد الحازم هو الذي يقرأ وفكره مشحوذ وذهنه غير شرود، فالنص يشتمل على سؤال يوجه إلى القارئ فيبث فيه حيرة وقلقاً فيشغل هذا الأخير كل قدراته الثقافية الدينية الفنية وكل ما يملك ليفهم مغلفات هذا الخطاب ويستكشف مواطن الصمت فيه، ويبين ما فيه من طاقات فكرية خصبة وتضاريس شعورية متدفقة واتجاهات إنسانية)) (٢)

إن غاية القراءة هي التفسير والوصف وتأويل النص المقروء ، وهي جميعاً عملية استحضار للجوانب والأفكار الكامنة في النص المُؤلف فقراءة القارئ هي تأويل للنص وهي في الوقت نفسه تأويل ثان للنص بعد أن جلبه المؤلف أولاً ، والقارئ عندما يقوم بالعملية الاستقرائية للنص إنما يعمل على إمساك زمام موضوعه ، والتقوقع على معانيه وتفحصها بمنهجية علمية ومعرفية وثقافية دقيقة تنطلق من الموضوع والى الموضوع واختيار الإستراتيجية المنهجية في مواجهة النص ، هنا يُفعّل دور القارئ والقراءة في فك شفرات النص من خلال فرض هيمنة غير دكتاتورية على النص المقروء بفعل القراءة نفسها . وان حفريات النص التي يقوم بها القارئ ستشكل عصب التفكير القرائي الذي يسعى القارئ إلى خلقه وتشكيله من جديد ، والنصوص عموماً أشبه بالأحجار يعمد القارئ إلى نحتها وإخراجها بتشكيلات بصرية تسر الناظرين متعددة واضحة المعالم بعد أن شابها الغموض وعدم وضوح الرؤية وثمة شروط لا بد من توافرها لاستقبال النص يقف العلامة عبد القاهر الجرجاني عليها إذ يقول:((لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمَهم مكانها وتصور لهم شانها، أمور خفية ، ومعان روحانية ، أنتَ لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتُحدث له علماً بها، حتى يكون مهيئاً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له

(١) المرجع نفسه/ص٩٠.

(٢) الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية دراسة في الأصول والمفاهيم: ص٢٢٦،ص٢٢٧.

ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه أحساساً بان من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة)) (١) . وإذا كان الجرجاني قد أكد على الإدراك والذوق الحسي في استقبال النص فان إيزر يذهب إلى أن عملية التلاقح مابين القارئ والنص هي:((عملية شاملة ومعقدة تؤسسها مجموعة عناصر ومحددات ذاتية وموضوعية،نصية وخارج نصية ،يمثل فيها الواقع الجمالي الدور المحّرك والفاعل في صنع التجربة الجمالية ككل))(٢) وخير من يمثل إنتاجية النص في العملية القرائية في التراث النقدي العربي هو عبد القاهر الجرجاني ((ولابد من امتلاك المتلقي لملَكة الاستجابة ، لإدراك لطائف النص ومقاصده الجمالية . والذوق الفني والقريحة الجمالية هي التي تكفل للمتلقي عملية الإدراك)) (٣) فهذان الشرطان يجعلان من القارئ أكثر ملاءمة لمواجهة النص وكشف إسراره أما إيزر فالمتأمل لشروطه يجد((أنها لا تخرج عن السجية الفنية التي يمتلكها المتلقي لإدراك معنى النص؛ولعل القريحة الجمالية التي أشار إليها الجرجاني تحتل موقعاً مركزياً في عملية القراءة بوصفها عنصراً، محدداً ذاتياً؛ كما أن فهم معاني النص؛ وخفاياه يُعد من العناصر الموضوعية ؛ ولا تُدرك مرامي التعبير اللغوي إلا بأحداث التأثير الجمالي في القارئ)) (٤) فالجرجاني يرى أن القراءة لا تظهر على السطح إلا بوجود الذائقة القرائية فان وجدت كانت هنالك تهيئة من القارئ لإدراك النص كما أن الجرجاني يعول على القريحة الذوقية في استدراك النص((ولا جرم أن استكشاف خبايا النص، ودلالاته يتم عبر إحساس القارئ بالفروق الموجبة للمزية والفضل في التعبير البلاغي؛ ولا يحدث هذا الإحساس في غياب التهيئة النفسية للاستجابة)) (٥) وينبغي علينا أن نفرق بين قراءة القارئ للنص نفسه وبين حفره إلى ما هو مؤكد في النص ولا نجنح إلى أفكار ومعانٍ بعيدة كل البعد عن النص((فالقارئ محكوم بعلامات النص ومحدداته اللغوية ، ولا يمكنه أن يحوّل مسار القراءة إلى قراءة نوايا الكاتب ومحاكمته وفق صورة مسبقة قد تكون

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني:عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليهمحمود محمد شاكر، مكتبة الخانجيط(٢) القاهرة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م، ص٥٤٧.

(٢) الواقع الجمالي والياتلنتاج الواقع عند وولف غانغ ايزر:عبد العزيز طليمات، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، المغرب ، فاس،ع(٦)١٩٩٢،ص٦٨. نقلاً عن دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعصر:ص٦٩.

(٣) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر:ص٦٨.

(٤) المرجع نفسه:ص٦٩.

(٥) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر:ص٦٩.

مشوهة ،ومحرّفة)) ([1]) فالقراءة هنا مكملة لما جاء به الكاتب (المؤلف)وتفاعل القارئ مع النص ينطلق من أن القراءة الهادفة لا بد لها أن تتوافق وفق شروط منها:((التزام الناقد باحترام القراءة ومقاصدها وأهدافها وغاياتها،وعدم الاعتداء على حرمة الممارسة القرائية .وتحرير الناقد ما أمكن . من سيطرة الهواجس الأيديولوجية والمشارب الفكرية ، وهو تحرير يفضي إلى إضعاف علاقة التأثير المتبادلة بين الايدولوجيا ، والأحكام المسبقة ، كبح جماع التأويل الأيديولوجي في قراءة النص ، لعجزه عن تحقيق المعنى، واستكناه دلالات النص))([2]) .لا نزعم أن الحرية في التأويل التي يتمتع بها القارئ في مواجهة النص تجعله يثير أمورا خارج النص((وبما أن المتلقين غير متساوين في هذه القدرة التأويلية إذ يؤول كل واحد مقروءه بالطريقة التي استطاعها واطمأن بمفعولها ، والتي تختلف اختلافاً معيناً عن طريقة تأويل قارئ آخر. فان كل قراءة ترى أن النص ناقص في جانب معين تريد إتمامه؛ أي تضيف إليه أشياء جديدة)) ([3]) .إن القارئ الموضوعي يلجأ إلى إخضاع الظروف والحيثيات المعرفية المحيطة بالمنجز الخطابي للمؤلف ، خاصة إذا ما علمنا بأن هذا الخطاب يحمل في طياته تراكمات ثقافية ، فالقارئ يسعى إلى إيجاد نوع من التلاؤم والتطابق مابين الخطاب المقروء وخطابه بكل ما يحمله من تحديات متعددة في الخطابين وإحداث حركية وتفاعل عن طريق الحوار والنقاش مع تلك الخطابات المُنتجة ، وبعمله هذا فهو يؤكد على ديمومة وتواصلية الخطاب ونضجه فهو لا يُبقيه على حاله وإنما يسعى إلى إتمامه والبحث عن تفاصيل لم يتطرق إليها المؤلف الأصلي بشيء من التوضيح والتأويل وهي ليست دعوة إلى شخصنة الخطاب بقدر ما هي إيجاد طريقة نقدية أكثر دقة في قراءة النص ، خاصة تلك القراءات التي تسمو بالطابع الفلسفي والتي تكون فيها الآراء كلها مطروحة على الطاولة في محاولة لفرز تلك الآراء ومعرفة أيهما اقرب إلى النص المقروء . إن هذه العملية تتطلب أفق تطلعات القارئ الفطن الذي يمتلك آليات قرائية معتدلة لا تنحاز إلى النص المقروء ولا إلى القراءة نفسها .والقارئ يتصرف في النص المقروء ولكن ضمن حدود النص فلا يمكنه التجاوز على النص وإقحامه في منهجيات هي أصلا غير موجودة في النص والابتعاد عن الانزياحات غير المُسوغة والدخول إلى فكر المؤلف وتقويله لشيء لم يقله وكان بعيداً كل البعد عن النص و((قراءة النص بمعزل عن أي انحياز

(١) المرجع نفسه:٧٣.

(٢) المرجع نفسه:ص٩٣.

(٣) النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي :ص ١٤٨.

إلى المؤلف أو ضده وإقحامه بوسيلة أو بأخرى فيه يجعلنا نقرأ بشكل مختلف يكون أكثر حيادية ومنطقية وعدلاً)) (١) .من هنا سنحقق قدر المستطاع قراءة إنتاجية مثمرة تثري النص الأصلي للمؤلف وتوسع أفق تطلعات القراء فتزيد من ثقافتهم المعرفية للنص المقروء .

ومما لا شك فيه أن ثمة شروطاً من الضروري توافرها للقارئ الذي يسعى إلى مواجهة النص منها الكفاءة المعرفية والنقدية وان يكون عارفاً بالمكونات الأدبية وذلك من خلال العودة إلى المرجعيات الثقافية المتراكمة،ولا يعتمد أو يستند إلى البساطة في تحليل شفرات النصوص، وأن يمتلك حساً فكرياً متعالياً ومعقداً عند الانتقال من النص إلى القراءة(٢) . إن القراء الذين يتصدون للنصوص كثير منهم القارئ المبدع والقارئ المعتدل والقارئ السلبي(٣) وأيضا ((القارئ النموذجي والقارئ السطحي والقارئ المثالي والقارئ المبدع)) (٤) وكذلك القارئ الضمني والقارئ الافتراضي أو القارئ المحسوس(٥) فقد اختلفت المسميات من ناقد إلى أخر ولكن ما يعنينا هنا هو القارئ المبدع الذي أطلقنا عليه تسمية القارئ الايجابي،وعمل القارئ يقوم أساسا على آلية تقويم النص من خلال التوصل إلى الأثر الذي لا يظهر إلا بعد العملية القرائية وما يحتويها من متعة في هذه المنازلة والقارئ يعتمد على اللحظة الآنية للقراءة المبدعة أو البناءة من هنا أصبح القارئ هو المُصدر الأول للمعنى في النص وثمة إجراء آخر ألا وهو تركيز((دراسة التلقي على فحص العلاقات بين أفق توقع العمل وأفق توقع الجمهور، وفي هذا السياق يكتسب أفق التوقعات مغزى جديداً ، فهو يشمل بوصفه بنية تصورية اجتماعية ،لا على المعايير والقيم الأدبية فحسب ، بل على الرغبات والمطالب والطموحات)) (٦) . سنقوم بالدخول إلى العملية الإنتاجية للنصوص بوصفها سمة من سمات استجابة لتوقعات القارئ في العملية القرائية .إن هذا القارئ يمكنه أن يلعب دور البطولة في استثمارات العملية الإنتاجية للنصوص وهذه النصوص على

(١) لمن النص اليوم؟ للكاتب أم للقارئ: حسن غزالة، مجلة علامات في النقد، جزء٣٩، المجلد العاشر، النادي الأدبي الثقافي بجدة، النتلكة العربية السعودية، ذو الحجة١٤٢١هـ مارس٢٠٠١م،ص١٣٧، نقلاً عن دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر :ص٧٤.

(٢) ينظر: مفهوم القارئ وفعل القراءة في النقد الأدبي المعاصر: د. محمد خرماش، مجلة الأقلام،ع(٥)١٩٩٩ ،ص٢٠

(٣) ينظر :تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع للهجرة: ،ص٥

(٤) ما وراء النص دراسات في النقد المعرفي المعاصر: ص٨٨.

(٥) ينظر: مفهوم القارئ وفعل القراءة في النقد الأدبي المعاصر: د. محمد خرماش، مجلة الأقلام،ع(٥)١٩٩٩ ،ص١٩

(٦) نظرية التلقي والنقد العربي الحديث: غسان السيد، الأقلام ،ع(٤) أب،أيلول،١٩٩٨،ص١٧ .

ما يبدو أنها مليئة بالفجوات التي يسعى القارئ إلى ردمها وهذا يحصل نتيجة التفاعل الحاصل بين القارئ والنص، وقد نتفق على أن القارئ الايجابي هو((القارئ المثالي أو القارئ النموذجي ARCHILECTUR وهو مقولة ذهنية تنشأ بناءً على تحديد الوظيفة المرتقبة في كيفية أو مدى الاستجابة لمقتضيات النص، وبناءً على تصور القدرات المعرفية للتعامل مع جميع ممكناته،والقارئ المثالي ... ينشأ في ذهن الكاتب ويكون مصاحباً لوعيه، فيضمنه بنية نصه)) . ([1]) فهذه العملية الإستراتيجية في استقبال النص وقراءته توسع أفق تطلعات هذا النوع من القراء من اجل الوصل إلى قمة الهرم القرائي . ولكن ليس القراء على درجة واحدة ومتساوية في تلقي النص والوعي بمكنوناته بمعنى آخر أن النص المختار قد يكون نموذجاً ثرياً يحتذى به في الدراسات النقدية والمعرفية ولكن القارئ يعجز عن مواجهته من هنا أرتأينا إلى تسمية القارئ المبدع أو القارئ الحق الذي يضفي إلى النص مكونات إبداعية ؛ لأنه ينفع النص ويثري المعلومات المتغلغلة في النص . فالحديث هنا عن النص النموذجي وينبغي علينا أن لا نبخس دور القارئ في العملية التحليلية للنصوص فالقارئ قد يقف حائراً في تلك النصوص محاولة منه لإعطاء تلك النصوص الضعيفة شرعية في القراءة ، فإن أصاب القارئ فله وإن اخطأ أو أخفق في العملية القرائية فلا ضير في ذلك كله ؛وذلك لأن النص المقروء ربما ليس فيه وعي وعمق في المعرفة ،يضع القارئ في اختبار لمدى صحة الثقافة التي يمتلكها من جهة ويمارسها على النص من جهة أخرى((ويلتقي القارئ بالنص عند القراءة الفاعلة والمتأنية ؛أي القراءة الخلاقة وقد استطاعت نظرية القراءة أن تقوم بنقل مركزية النص من صانع النص إلى النص ذاته، فمركزية المؤلف لم تعد لها أهمية كبيرة ، لأنها ليست هي التي تلفت انتباه القارئ وتشده إليها ،بل الذي ينفعل به القارئ ويبقى في حدوده، وإنما هو مركزية النص...إنها عمل إبداعي يعيد صياغة النص، كون القارئ يضفي عليه شعوره وخبراته وتذوقه، ويبذل كل ما وسعه من أجل الظفر بالمداليل المُغيّبة وراء بنيته السطحية)) ([2]) والقراءة هي إعادة إنتاج للمعنى في النص ،ولبرهة من الزمن سيقف القارئ عاجزاً عن مواجهة النص وهذا العجز أحيانا لم يكن القارئ هو المسبب الأول فيه وإنما يعود إلى أن النص فيه كثير من الهوات المبهمة التي لا يمكن للقارئ الإمساك بها وإعادة إنتاجها من جديد ،والقارئ

(١) مفهوم القارئ وفعل القراءة في النقد الأدبي المعاصر: د. محمد خرماش، مجلة الأقلام،ع(٥)١٩٩٩ ،ص٢٠ .

(٢) النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي: د.إبراهيم صدفة ،الأردن ،اربد،عالم الكتب الحديث، ط(١) ٢٠١١ ،ص١٢٣

في النصوص الضعيفة ((لا يستطيع أن يحاور النص حواراً مباشراً يغطي الفراغات والانكسارات التي تعرقل التفاهم أو التواصل الكامل كما هو الشأن بين الناس وانه يجد فرصته في البياضات أو مواقع اللاتحديد التي يهيئها النص ويتدخل كشريك للمؤلف في تشكيل المعنى.وهذا التدخل يكون بالعمل على سد الثغرات وتكوين الحقل المرجعي وتحويل مواقع اللاتحديد للشيء الذي يرسم وجهة النظر وفق متغيرات النظام التوافقي للنص ووفق ترابط سلسلة الفراغات البانية . المتناوبة . وهذا ما يعنى أن القارئ وان لم يكن مستجدياً للنص فقط، فهو مرهون باستراتيجياته التي تحرضه على الفعل في اتجاه معين)) (١)وهذه الإجراءات التي يقوم بها القارئ المبدع ستؤدي في نهاية المطاف إلى خلق جوٍ من التوافق في ملء الفجوات والثغرات التي ستظهر عند التقاء النص بقارئه ، وهذا النوع من القراء يختلف عن القارئ الحقيقي ؛وذلك بما يمتلكه من تقنيات تمكنه من العثور على الأجزاء المتباعدة في النص التي ستثير استجابة القارئ، إذ تُحَّفز القراءة الذهنية المتعمقة في القراءة التأويلية(٢) وانطلاقاً من هذه التقنية التي عَبّد طريقها القارئ الايجابي(المبدع) نجد أن القراءة قبل كل شيء هي موهبة وثقافة غير متكلفة وهذا النمط من القراء يتجاوز النصوص المكتوبة من المؤلف فيكشف بذاته ما لم تكشفه من قبل قراءات فعالة منتجة حية متشابكة الدلالات متعددة المستويات(٣) على أن لا تكون القراءة هنا عشوائية التوجه والتفكير وهذا يتطلب من القارئ أن تكون قراءته سليمة التوجه بما تملكه من خبرات وكيفيات في تفسير النص المقروء فضلاً عن اللغة الشارحة اعتماداً على الفهم والذوق المعرفي خاصة فيما يتعلق بآليات اللغة والثقافة ،والقارئ في مواجهته مع النص يشابه المُفسر في النص القرآني(٤) .وإذا كانت القراءة بهذا النمط والمعرفية المبرمجة في متابعة آليات القراءة فان النتائج سوف تتماز بالدقة المنهجية ،والقارئ((يستطيع أن يحدد منطلقه في دراسة النص، فقد يختار منهجاً ملائماً لقراءة النص، وقد يختار منهجية هو لقراءة أي نص،وقد تجتمع لديه مناهج مختلفة يرى أنها تتضافر إلى جانب معارف أخرى

(١) مفهوم القارئ وفعل القراءة في النقد الأدبي المعاصر: د. محمد خرماش، مجلة الأقلام،ع(٥)١٩٩٩ ،ص٢٥ .

(٢) ينظر: الناقد ميخائيل ريفاتير البعد الأدبي لعلاقة القارئ بالنص: ترجمة محمد دروبي ، الأقلام ،ع(١)١٩٩٩،ص٤٦،ص٤٧.

(٣) ينظر :نظرية القراءة وتلقي النص الأدبي : د.شرشار عبد القادر، مجلة الموقف الأدبي ،اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ع(٣٦٧) تشرين الثاني ٢٠٠١. master-. lettressrsbe.blogspot.com

(٤) ينظر: جماليات التلقي في الرواية العربية: إبراهيم السعاقين ،مجلة فصول،مجلد(٦)،ع(٣)القاهرة،ص٩٣.

لتقديم أفضل قراءة ممكنة للنص)) ([١]) فهذا التحول جعل من العملية القرائية ممارسة إبداعية بعد أن كانت مهمشة لا تتمكن من التصدي لِما هو موجود في النص من آراء وأفكار مختلفة((إن إشكالية العلاقة بين القارئ والنص كما تتبدى في ذهن القارئ المُستقِبل هي إشكالية تأويلية ، تسعى إلى تثمير رغبة القارئ في اختراق الحُجُب النصية ومواجهة طبقات النص الباطنية واكتشاف كنوزه الدلالية ، حيث تتمكن الرغبة من تحصيل اللذة المبتغاة من فرح الوصول إلى درجة البرهنة على صدق الفروض وصحتها وسلامتها)) ([٢]) .

إن الخطابات التي ستتمظهر بواسطة القارئ المتميز أو الايجابي أياً كان نوعها لا تتم إلا إذا تحقق الوصال المتجذر مابين القارئ والنص ليتحقق بذلك التفاعل الجمالي ، والنص يولد مرتين، الأولى على يد صاحبه الأصلي (المؤلف) والثانية على يد القارئ إذ أن المشاركة الفعالة تعيد الحياة للنص وتثبت فيه إبداعات جمة ومما لا شك فيه أن القراء يتفاوتون في استقبال النصوص من حيث فهم الدلالة عندها سنكون أمام أفق وجيه لإنتاج نصوص إبداعية أخرى جديدة من رحم النص الأول أو نص المؤلف فتصبح((العلاقة بين القراءة والنص علاقة تبادلية إنتاجها وحية في حوارها، قائمة على آلية التأثير والتأثر، إذ يواصل القارئ تقدمه في الكشف المستمر عن إشكالية المعنى النصي وعوالمه السيميائية من جهة، ويطور من جهة أخرى من إمكاناته القرائية ، ويحسّن من طريقته في القراءة عبر الإضافة النوعية التي تنعكس على تعميق النظر في أغوار نفسه، وكشف المزيد من أسرار وجدانه، وتحقيق أطلالة أخرى في مناطق كانت غامضة في شخصيته)) ([٣]) يتوسم القارئ في العملية الإبداعية القرائية الكشف عن مساحة اكبر في فهم النص شريطة توافر الاستقلالية التامة لمواجهة النص وإعادة الإنتاج الثقافي للنص المقروء من هنا يحصل البناء التكاملي عندها تتحول ((القراءة بفعل خضوعها لجهد تنظيري منهجي مكثّف في سياق نظريات القراءة والتلقي إلى نشاط إبداعي خلاّق لا يقل أهمية عن نشاط الكتابة ذاتها، لا بل أصبحت شريكاً مركزياً في إنتاج النص الأدبي وإيصاله إلى التأثير

(١) جماليات التلقي في الرواية العربية: إبراهيم السعاقين ،مجلة فصول،مجلد(٦)،ع(٣)القاهرة ص ٩٣.

(٢) شفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى : د. محمد صابر عبيد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ط(١)٢٠٠٩ ،ص٢٢.

(٣) المرجع نفسه : ،ص٢٢.

العميق في صُلب الحضارة الإنسانية))([1]) إن هذا الانفتاح على النص لا يعنى إلغاءه وإنما التغلغل فيه والقارئ أُعطي السلطة وهو يمتلك المفاتيح التي سيفتح بها مغاليق النص المراد قراءته في محاولة لاستنباط ما تمخضت عنه كتابة المؤلف بغض النظر عمّا تمثله القراءات من اتجاهات مختلفة . والقارئ الايجابي هو الذي يمتلك مبادرة تجميع الآراء المتبعثرة في النص كما أنه لديه القدرة على((القراءة الصحيحة التي تلج النص من بوابة الانفعال بحيوات التشكيل النصي الدائمة الإغراء والإدهاش والتحدّي،وهي تنفتح برحابتها ومرونتها على توطيد فعل الحب المتبادل بين الطرفين فلا قراءة فاعلة وعميقة وجوهرية ومنتجة من دون الارتفاع برغبة القارئ إلى مصاف الحاجة الماسّة نحو معانقة الجسد النصي ومداعبته وترويضه، وإثارة مكمن اللذة فيه واستشعارها، والتلذذ بتموجاتها وتمظهراتها واستنطاق أسرارها، والابتهاج ببريق كنوزها العميقة الدفينة)) ([2]) فتصبح كل قراءة للنص الأصلي إنتاجا لنصوص جديد بمعانٍ متعددة ، ولكنها تبقى مستوحاة من النص الأول وبذلك تَمُدُّنا بنتاجات غزيرة نشيطة وذكية فهي عملية قرائية وإنتاجية للمعاني العميقة فالقارئ هنا كمعانيه التي حصدها من النص ينماز بالتمرس النشيط القوي الذي لا تكبحه قوة شفرات النص وهذه العملية التحاورية تحاول أن تملأ تلك الفراغات والفجوات والنتيجة هي إثراء النص وجعله يزخر بدلالات لا حصر لها، ومما نلحظه((إن القارئ الواحد يختلف عن غيره في الثقافة والتطلعات والتفكير والتفسير وحتى في الشخصية ذاتها، كما يمكن أن يختلف حتى مع نفسه فيعارضها ويناقضها أحياناً، وينتج عن كل ذلك قراءات مختلفة ومتعددة وكثيرة للخطاب الواحد الشيء الذي يجعله دائماً محطة للبحث والتنقيب بغية الوصول إلى الحقيقة))([3])

إن الوعي بجدلية العملية القرائية يجعلنا نفكر مراراً وتكراراً في أبعاد تلك القراءة وإدراك الوعي المُستخلص منها مما يقتضي التأني في إنتاج النصوص المقروءة وهذا ما ذهب إليه رولان بارت بقوله:((إن نص اللذة : هو النص الذي يرضي، فيملأ، فيهب الغبطة . انه النص الذي ينحدر من الثقافة، فلا يحدث قطيعة معها ، ويرتبط بممارسة مريحة للقراءة . وأما نص المتعة : فهو الذي يجعل من الضياع حالة ، وهو الذي يحيل الراحة رهقاً)) ([4]) إن القارئ لا يؤدي وظيفة القراءة فحسب وإنما

(١) شفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى: ص٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٦.

(٣) الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية دراسة في الأصول والمفاهيم: ص٢٣١.

(٤) لذة النص رولان بارت: ترجمة منذر عياشي، دار لوسوي، باريس، ط(١) ١٩٩٢.ص٣٩.

يحولها إلى آلية منهجية وإستراتيجية بمعنى أن ما ينتجه القارئ ليس محض قراءة وإنما التأسيس على بُعد خطابي جديد ولكن ليس بواسطة الكتابة وإنما عن طريق القراءة فهذه الرغبة الجامحة في اختراق النص سينتج عنها خطابات نقدية متطورة بعد أن تم إدخالها إلى مصنع تهيئة القارئ فهي ناتج المؤلف والقارئ وما سيصاحبها من أحكام متطورة تاريخياً وثقافياً((وإذا ما وجد القارئ ذاته القرائية وقد أصبحت في خضم الفضاء التشكيلي للنص الأدبي فاعلاً ومنفعلاً، وجاذباً ومجذوباً، وفي حوار وظيفي يتنكب أهدافاً لا بدّ من العمل المجتهد لانجازها، فانه لا بدّ من أن يتحول إلى جزء من كيان هذه العلاقة المزدوجة والإشكالية التي لا يستمر القارئ فيها بالسعي الحثيث إلى إخضاع شراسة النص لمنطقه حسب، بل يمنح نفسه بالمقابل لآليات التواصل ذاتها وينفتح على مقولات النص)) (١) إن النص هو عبارة عن مجموعة من التساؤلات التي يطرحها المؤلف على القارئ والنص في ضوء الدراسات النقدية الحديثة ((ليس له وجود إلا عندما يتحقق وهو لا يتحقق إلا من خلال القارئ، ومن ثمة تكون عملية القراءة هي التشكيل الجديد لواقع مشكل من قبل هو العمل الأدبي نفسه))(٢) ففي ظل هذا التصور أصبح القارئ معيداً لإنتاج النص من جديد والقراءة تصبح كتابة ثانية ، بكل ما تحمله من انبثاقات جمالية وهذه العملية تتطلب قارئ فذ ممارساً ابداعياً لقراءة النصوص التي تشترط حساً فنياً وفلسفياً يمكنه التحول إلى جماليات النص وإسراره الخفية وحوصلة النتائج المرجوة من القراءة((إن كفاءات القارئ واستعداداته ومزاجه القرائي باعتمادها على العادات الثقافية والنماذج الثقافية المتداولة في مجال القراءة ، والكيفية التي تجري فيها فعاليات القراءة بأنشطتها كافة وبتمثيلها للمحتوى الكامن في بؤر المقاصد. من شانها جميعاً أن تدفع القراءة إلى إفراز جماليات خاصة تمثل عنوانها ومنهجيتها وغايتها المعرفية ، على النحو الذي يتداخل فيه عنصر الإنتاج القرائي في سياق تشكيل المعنى مع الجماليات النوعية التي تنتجها القراءة)) (٣) . من هنا نجد أن للقارئ إيديولوجية في جمع الأنظمة والآليات الكشفية . فلا نستطيع بأي حال من الأحوال إنكار دور القارئ أو التملص منه في العملية الإبداعية ؛لأنه العنصر الأساس التفاعلي في تشكيل فعل القراءة ، ومما لا شك فيه إن توافر الثراء الثقافي للقارئ يُمكنه من ضخ دلالات إنتاجية متراكمة في النص المقروء ولابد من ((التهيئة النفسية للمتلقي، وقابليته للاستجابة

(١) شفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى :ص٢٦.

(٢) القارئ في النص: نبيلة إبراهيم ،مجلة فصول،عدد خاص بالأسلوبية،مجلد (٥)ع(٧) .القاهرة ١٩٨٤ ،ص١١١.

(٣) شفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى :ص٥٣.

الفنية من عوامل إدراك لطائف النص ومقاصده الخفية؛ ليحدث التفاعل بين النص ومتلقيه؛بيان ذلك أن الاقتصار على النص الفعليّ، دون تفاعل المتلقي مع بنيته النص يفضي إلى غياب أثر القارئ في إدراك معاني النص)) ([1]) .فانعكاس الحالة النفسية للقارئ على النص تتطلب إحضار قابليات القارئ العقلية والذوقية والحسية ، وهذا لا يعني أن القارئ سوف يشطح عن النص المقروء و((لا يمكن الوصول إلى معرفة دور القارئ إلا من خلال بنية النص ذاتها، وبواسطة التحقق الذي يتم على يد القارئ، وعليه؛ فان بنية النص وبنية فعل القراءة مترابطان بشكل وثيق)) ([2]) . إن النص يمتلك ويميل إلى عدة معان يحاول كل معنى أن يفرض رأيه على القارئ وعند نضج فكرة المعنى في النص يتم إحضارها بواسطة القارئ ، من هنا فان نفوذ المؤلف لم يعد له قوة في النص ،والنص في حقيقته مجموعة من النصوص المنسوجة وفق لغة خطابية يحاول المؤلف اقتباسها وتضمينها من عدة أفكار ومن تراكمات ثقافية متعددة وهذا يعني إنها تحمل عدة معان _ كما أسلفنا سابقاً _ مما يولد تعددية في الأفكار لا نجد هذه التعددية في نص المؤلف ،أما القارئ فهو الفضاء الذي تُكتب فيه كل النصوص المتزاحمة (المتراكمة) والمترامية الإطراف والتي تجتمع في النص الواحد(التناص) وعلى هذا الأساس فان النص لا يمكننا اكتشافه إلا من خلال وجود نشاط إنتاجي له، فالنصوص قائمة على تلاقح الخبرات وانصهارها بعضها مع البعض الأخر وخبرة القارئ هي التي ستظهر بيانات تلك النصوص، وهذا القراءات هي قراءات مفتوحة غير منعزلة عن القراءات الأخرى ولا يمكنها التوقف عند حدود معينة حتى وان رسمها((ومهما حاول القارئ الإحاطة بكل جوانب النص المقروء وتحديد إيحاءاته وظلاله، فانه يبقى دائماً خاضعاً لاحتمالات أخرى، يستطيع قارئ أخر أن يلاحظها ويسبر أغوارها . ثم يأتي آخر ويعلن معاني أخرى. وهكذا.وبذلك تبقى كل بداية فيه بداية ويبقى النص غير منته .لان كل قارئ يسقط ذاته عليه بكل مكوناتها. فتتباين الآراء وتتعارض أحيانا . وقد يتجاوز التباين والاختلاف بين القراء إلى القارئ الواحد)) [3]

(١) دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي المعاصر :ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٨.

(٣) النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي: د.ابراهيم صدفة ،الأردن ،اربد،عالم الكتب الحديث، ط(١) ٢٠١١ ،ص١٠٧.

الخاتمة :

لم يحظ المؤلف في المناهج التي ظهرت ما بعد البنيوية باهتمام كبير كالذي كان عليه من قبلها ولم يعد يتمتع بالسلطة والسيادة التي كانت ممنوحة له قبل أن يأتي القارئ فيستلبها منه والذي اخذ على عاتقه إرساء لَبِنات النص فأصبح القارئ هو نفسه منتجاً للنص بعد أن كان يقف موقف المتفرج عليه ، وأصبح النص لا يمكنه الحضور إلا بعد مساهمة القارئ، والغاية من هذه العملية القرائية المتواصلة هو تحويل النص المُؤلف إلى نص إبداعي تتعدد فيه الموضوعات المعالجة له حسب وجهات نظر القارئ ، والقارئ بطبيعته لا يستقر عند قراءة واحدة ، فهو أشبه بالمادة الزئبقية التي لا يمكننا الإمساك بها . وبطبيعة الحال إن انفتاح النص لم يأت من النص نفسه وإنما من القارئ ، وإفساح المجال أمام القارئ سيعمل على إظهار الجوانب المظلمة من النص لينيرها بتحليله وتسليط الضوء على الجوانب المخفية فيها ، كما أن تلك القراءات ستغني النص بالمعاني والدلالات وهذه الاستنتاجات لم تكن بأي حال من الأحوال من ابتكار الكاتب واختراعه وإنما هي عملية خلق جديدة من القارئ ولنكن أكثر حيادية ، نقول: إن القراءة الإبداعية لا تتأتى من نص هزيل ومبهم وإنما من النصوص التي تحمل أوجهاً دلالية متعددة عندها يبدأ القارئ باختراق النص وكشف محارمة وإعطاء عملية توافد للدلالات المختلفة ، ولا يمكننا إنتاج نصوص إبداعية جديدة إلا بوجود نص نعمد إلى تشظيه في مختلف الثقافات ، وعمل القارئ يقوم اساساً على أن النص يمتلك أفقاً مفتوحاً ومتغيراً ومتجدد لِما يصاحبه من استمرارية قرائية توسع من اثر هذا النص، فبعد إقصاء سلطة المؤلف امتلك القارئ الحق في التدخل في النص بعد أن كان أسيراً مكبلاً بالقيود، وهي ليست دعوة إلى التوحد مع النص وإنما الانفتاح المعرفي للوصول إلى النتاج وما يكتنزه هذا المنتوج من إبداعات ثقافية ونستخلص من ذلك إن القارئ هو الذي يعيد إنتاج النص من جديد ، والقراءة هي عملية إبداعية قبل كل شيء ؛وذلك لأنها ستكون القاعدة الأساسية لانبثاق القيم الجمالية والمعرفية التي سيرتكز عليها الخطاب الثقافي والنقدي الحديث . أن القراءة الحرة التي أرسى قواعدها القارئ الايجابي لا تتقيد بالسياق النصي، وهذا مما يوفر للقارئ الحرية في توضيح الشفرة في محاولة لا يجاد ما يبحث عنه في النص ، ذلك أنها مسألة ذاتية تعكس طبيعة القارئ في النص بكل انطباعاته الشخصية، وهذه القراءات هي وصفية ، وكل قراءه تحمل عدة احتمالات ، ولا نستطيع أن نقول إن هنالك قراءات خاطئة جملة وتفصيلاً وقراءات أخرى صحيحة ؛وذلك لأنها قراءات انعكاسية لِما هو في النص وما تتوافق معه من أذوق القراء وأمزجتهم والقراءة الناجعة هي التي يتمكن

أهلها من تحقيق الحس الفني والفلسفي . إن القارئ الايجابي يسعى إلى معانقة النصوص سواء أكان على الصعيد المنهجي أو النظري، والقراءة من وجهة نظر هذا النوع من القراء هي قراءة وصفية جمالية لا تعرف الهدوء أو السكينة ولا تتوقف ولا تعرف معنى الثبات ؛وذلك لأنها محاطة بالتغيير فهي إعادة تكوين للنص المقروء والقواعد المناطة إلى هذه القراءة هي عملية تعرية النص وإعادة اكسائه في الوقت نفسه فالقارئ يدخل إلى أحراش النص وان لم يكن متسلحاً بأدواته القرائية فانه سيقف عاجزاً أمام النص المقروء .

Reading as Deferred productive process

Lect .Dr. Ibrahim Younis Mahmoud

Abstract

The research aims at giving obvious indications to the role of the reader as compared with the author post- constracuralism doctrines. The reader is given much bigger role , in these trends , in decoding the text and in elaborating it. In doing so , the reader becomes a creative entity that helps opening closed entries to the secrets or hidden aspects of the text , a role which has not been assigned to so earlier . The overall process requires two basic elements to be found , a creative text and a creative reader . Reading post constrcuralism is a positive participation in rebuilding the text in aesthetic descriptive way . It is given a dynamic notion which aims at engaging into the text using special tools to parenthesize and deconstruct it then giving it a new form and decoration